الفصل الثانى

زيت القنديل وصدمة الحضارة

تعتبر رواية «قنديل أم هاشم» للكاتب الكبير الراحل يحيى حقى والتى تحولت إلى فيلم بنفس الاسم سنة ١٩٦٨م من إخراج كمال عطية، وقام بدور البطولة فيه الممثل القدير الراحل شكرى سرحان، من أفضل الأعمال التى ناقشت رؤية الشرقيين للغرب.

وقال يحيى حقى نفسه فى كتاب حكى فيه سيرته الذاتية بعنوان (أشجان عضو منتسب)، إنه أخذ اسم إسماعيل بطل الرواية من اسم صديق له يدعى إسماعيل كامل، كان آخر منصب شغله هو سفير مصر فى الهند، فقد كان يمثل – فى نظر يحيى حقى – محاولة المزاوجة الحقّة بين الشرق والغرب.

ويمضى قائلا إن اسمه لا يكاد يذكر إلا ويذكر معه (قنديل أم هاشم) كأنه لم يكتب غيرها، وكان يضيق بذلك أحيانًا، ولكن كثيرين حدّثوه عنها واعترفوا بعمق تأثيرها فى نفوسهم. ومنهم أديب يمنى قال له: (لقد أحسست أنك تصفنى حين أعود من القاهرة إلى اليمن). وقال له بائع كتب قديمة (مش القصة اللى فيها واد بياكل بفتيك فى أوربا وأهله بياكلوا طعمية فى مصر!!).

ويكشف يحيى حقى السر بقوله: (حين أحاول البحث عن سبب قوة تأثير قنديل أم هاشم لا أجد ما أقوله سوى أنها خرجت من قلبى مباشرة كالرصاصة، وربما لهذا السبب استقرت فى قلوب القرّاء بالطريقة نفسها).

والتبريـــر الذى يقدمه يحيى مقنع إلى حد كبير، فما خرج من القلب ذهـــب إلى القلـــب فيما يقول القدماء، والروايـــة التى خرجت من القلب مباشرة كالرصاصة، مشـــحونة المعانى والدلالات، بالغة التكثيف الذى يقـــول الكثير من الـــدلالات بأقل القليل من الكلمات، لابد أن تنجح فى أن تنقل إلى مَن يقرأها بعض ما شعر به الكاتب من احتدام وتوتّر وتفجّر وتوهج أثناء فعل الكتابة. ولكن المؤكد أن ما خرج من قلب يحيى حقى مـــا كان يخاطـــب كل هذه القلـــوب التى تأثرت بروايتـــه، والعقول التى استجابت إليها، إلا لأنها لمست الأوتار الحسّاسة فى هذه القلوب والعقول.

ويعتقد الناقد الكبير الدكتور جابر عصفور أن البعد الخاص بالعلاقة المتوترة بين الشرق والغرب ينطوى على سبب من الأسباب التى تجعل لرواية يحيى حقى جاذبيتها، خصوصا أن بطلها إسماعيل ينتسب إلى أصول زراعية هاجرت إلى القاهرة، وعاشت فى حى (السيدة زينب) لأنه الحى الذى يصل بين الأسرة الزراعية الأصل وجذورها، وذلك عن طريق صنف التجارة التى اختارها والد إسماعيل الذى نراه فى الرواية، وعن طريق الوافدين على السيدة (أم العواجز) من الذين يطلبون عونها فى قضاء الحاجات، قادمين إليها من الريف، ومن الأحياء الفقيرة للمدينة، جالبين معهم عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ولهجاتهم.

والنتيجة هى الجدارية التى يصنعها قلم الكاتب المقتدر الذى عاش طفولته الدالة التى أعيد إنتاجها بما أكسب الرواية حميمية خاصة فى واقعيتها التى لا تتردد فى استخدام العامية بالرغم من (حنبليتها) الدالة فى استخدام تراكيب اللغة الفصحى وصياغاتها الأسلوبية.

هذه الواقعية الحميمة يشعر بها كل من يقرأ الرواية، ويكون على شيء من الألفة بالتاريخ الاجتماعى لسكان السيدة زينب، فالشيخ رجب – والد إسماعيل البطل – ترك قريته وقدم إلى القاهرة معه والده للتبرّك بزيارة آل البيت، ودفعه أبوه – فى الزيارة الأولى لمسجد السيدة زينب – ليهوى معهم على عتبة المسجد الرخامية يرشقها بقبلاته، فينظر إليهما (أولاد البلد) باسمين لسذاجة هؤلاء القرويين، ورائحة اللبن والطين والحلبة تفوح من ثيابهم. وتجذب (السيدة زينب) الأب إليها، فيستقر فى القاهرة سعيًا وراء الرزق، ويسكن بالقرب من حاميته.

نظرة على الشرائح الدنيا

ويبـدأ إسماعيل خطوات التعليم المدنى فـى المدارس الأميرية تعينه تربيته الدينية وأصلـه القروى، فيمتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلميه، مع حشـمة وكبر وصبر. إن حرم التأنـق لم تفته النظافة. وهو فوق ذلك أكثر رجولة وأقوم لسـانا وأفصح نطقا من زملائه (المدلعين) أولاد أفندية المدينـة المبتلين بالعجمة وعجز البيان، فتعلقت به الأسـرة، كما تتعلق أسـر الطبقة الوسطى الصغيرة بأبنائها الذين يظهرون تفوقا فى التعليم، ويجسّدون حلم الأسرة فى الارتقاء الطبقى الذى ظل التعليم المدنى وسيلته الأولى لدى أسـر الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى المصرية. ويظهر هذا التعلق فى توقير إسماعيل، وتدليله، وتخصيص أطايب الطعام والشراب لـه. إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب، وهو يتلو أوراده، إلى همس يـكاد يكون ذوب حنان مرتعش، ومشـت الأم علـى أطراف أصابعها،

حتى فاطمة النبوية - بنت عم إسماعيل، اليتيمة أبًا وأمًا - تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها، وتسكن أمامه فى جلستها صامتة، تسهر معه كأن درسه درسها، متطلعة بعينيها المريضتين المحمرتى الأجفان، وتظل الأسرة كلها محيطة بإسماعيل الذى يذاكر إلى أن يأوى إلى فراشه، وعندئذ فحسب، تشعر الأسرة بأن يومها انقضى، وتبدأ تفكر فيما يلزمه فى الغد. كما لو كانت كل حياتها وقفا على توفير راحته، ودفعه إلى طريق النجاح، فهو أمل الأسرة فى مستقبل آخر، ينتقل بها اجتماعيًا وطبقيًا وثقافيًا.

وسنة بعد سنة ينجح إسماعيل، ويفوز بالأولوية، ويشارك الجيران بالفرحة.

ويقترح البعض على الشيخ رجب أن يذهب ابنه إلى أوربا، ويقبل الأب الذى لايزال يحلم بأن يرى ابنه طبيبًا، مدركًا أن هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنيهًا فى الشهر، غير ما يلزم الابن فى أول الأمر من نفقات الطريق وثياب تقيه من البرد. ويتوكل الأب على الله، وببركة أم العواجز، وضوء زيت القنديل الذى لا يفارق أسطر الرواية من أولها إلى آخرها. وينتقل إسماعيل إلى (بلاد برة).

لقاء الشرق والغرب

كانت (قنديل أم هاشم) تعبيرًا عن الآثار النفسية العاصفة، فى وجدان المثقف العربى ووعيه، نتيجة لقاء الشرق بالغرب، وتفاعلات اللقاء داخل المثقف الذى لابد أن ينقسم على نفسه، انقسامه على ما جاء منه، وما ذهب إليه، وما عاد إليه فى الوقت نفسه.

وبالرغم من أن إشكال العلاقة بين الشرق والغرب، من حيث هو تجربة، واحد فى كل الأعمال الإبداعية التى تقاربه، من حيث هو موضوع، فإن المعالجات المختلفة التى تبدو بها ملامح الإشكال مغايرة فى كل حالة، وحسب كل عمل إبداعى يجسّدها، ولكن الوحدة فى البنائية للإشكال تفرض عناصر متكررة تظل ثابتة فى كل عمل إبداعى من الأعمال الروائية التى تعالج مشكلة العلاقة بالآخر أو الصدام الحضارى بين الشرق والغرب. ويمكن أن أشير من هذه العناصر إلى اثنين أساسيين فى دلالاتهما ووظائفهما البنائية داخل الأعمال الإبداعية.

العنصر الأول هو عنصر الرحلة التى هى انتقال فى الزمان والمكان والوعى على السواء، والرحلة سفر، والسفر تحوّل وتغيّر، أو التحوّل والتغيّر يتم ما بين نقطة الانطلاق ونقطة الوصول فى مستوى، كما يتم ما بين نقطة الوصول ونقطة العودة فى مستوى ثان. وهناك، بالطبع، التناقض الواقع بين نقطة الابتداء فى الرحلة، حيث التخلف المادى مقرون بالتخلف الفكرى فى نقطة الابتداء فى الرحلة، والتقدم المادى مقرون بالتقدم المعنوى فى نقطة الوصول، فالمسافة بينهما مسافة بين متعاديين، أو بين شاطئين لا يلتقيان، أولهما لا يعرف تخلّفه إلا بواسطة مَن يقوم بتمثيله فى الرحلة، ويرى واقع هذا التخلف فى مرآة الآخر، أو فى مرآة العالم الجديد الذى ينتقل إليه ويصيبه بالصدمة والدهشة والحيرة، فارضًا عليه أن يختار – على نحو شعورى – ما بين الضفة التى جاء منها، والتى أصبحت مقرونة بالتخلف. والضفة التى وصل إليها والتى أصبحت مقرونة بالتقدم. ولذلك تغدو العودة فى الرحلة نقيضًا للذهاب، فهى الوعى مضافًا إليه العلم المادى وقيم التحضّر التى

تجعل من العائد غريبًا فى موطنه، مغتربًا عن عاداته البالية وقيم تخلّفه التى أصبح يراها على نحو مفارق، احتجاجى، أو عدوانى، رافضًا فى كل الأحوال بقاء الأوضاع على ما هى عليه قبل الرحلة.

أما العنصر الثانى، فهو التقابلات الحديّة المقترنة بالرحلة نفسها، أى بحركتها بين نقيضين لا يلتقيان ماديًا، لكنهما يمكن أن يلتقيا معنويًا أو فكريًا، شريطة أن يجذب الطرف الأقوى إليه الطرف الأضعف، فيستوعبه، أو يسهم فى تحوّله على مستويات كثيرة. والتحوّل هنا يتم على المستوى الرمزى الذى جعل من حضارة الضفة الأخرى للغرب متمثّلة فى امرأة، ومن حضارة الأنا للشرق متمثلة فى رجل. والمعنى الرمزى للمرأة قرين الغواية التى تجذب إليها الذكر، فتخرجه من عالمه الساكن الجامد الذى كان يتقوقع فيه إلى عالم آخر أكثر تقدمًا وحركة وحيوية. ولذلك يكثّف التضاد بين الأنثى والذكر التقابلات الأساسية الموجودة فى إشكال العلاقة بين الشرق والغرب. فالرحلة إلى الغرب مقرونة دائمًا بالحركة بين متقابلين على مستوى المكان والزمان والقيمة. وتتصاعد هذه الحركة مع الحضور الرمزى للمرأة الذى هو نوع من الغواية التى تجذب بها مباهج الغرب المرتحل من الشرق. ولا تخلو هذه الغواية الرمزية من المعنى الجنسى الذى يتحوّل إلى تمثيل لمبدأ الرغبة، أو شوق الوصال الذى لا يتحقق تجسيدًا للمبدأ نفسه.

طائر من الغرب

وقد تحدث توفيق الحكيم – فى (عصفور من الشرق) و(رسائل زهرة العمر) على السواء – عن هذه المباهج بطريقته التى أحالت الغرب

إلى كون رومانتيكى مثالى، تتجسّد مباهجه فى المرأة التى أحبّها محسن، والتى لم يجد أفضل ما يهديه إليها سوى طائر ينقل إليها على نحو رمزى مشاعره مع الزهور التى تحيط بشرفتها. وحتى عندما يعود محسن (قناع الحكيم) إلى بلده، بعد اكتمال شعائر الرحلة، فإنه يظل معلّقًا بالضفة الأخرى من البحر المتوسط، حيث باريس (فترينة العالم... الواجهة البلورية التى تعرض خلفها عبقرية الدنيا). ويؤدى به هذا التعلق إلى أن يعيش حياتين فى وطنه الذى أصبح يرفضه، ويتمنى لو استبدل به نقيضه الذى لا يكفّ عن الحلم به، فيعيش فى الظاهر كما يعيش الناس فى بلده مصر. أما فى الباطن فيعيش فى أوربا حيث آلهته الجديدة وعقائده ومثله العليا، الأمر الذى يؤدى إلى الصراع بين الحياة الظاهرة والحياة الباطنة، الصراع الذى يسعى فيه كل طرف إلى أن يسود، وذلك بالقدر الذى تسعى به ثوابت الواقع إلى الدفاع عن ثباتها، ومهاجمة الخطر الذى يهدد الثبات بالتغير، والسكون بالحركة، خصوصًا فى تلهّف الذات التى غَوَتْ إلى أن تستبدل بمظاهر التخلف علامات التقدم.

رؤية جديدة

هذا الصراع هو الذى عاشه الدكتور إسماعيل - بطل (قنديل أم هاشم) - بعد عودته من الغرب، إنجلترا، طبيبًا مشهودًا له بالكفاءة فى العيون، وذلك بعد أن قضى سبع سنوات (لاحظ دلالة الرقم!) تبدّل فيها حاله، كما لو كان صعد من الأرض السابعة إلى السماء السابعة، فوصل إلى ما لم يكن يدور بخلده، أو يتخيله. ولم يعد ذلك الفتى الذى كان

عليه وقار الشيوخ حين صعد سلم الباخرة، بطيء الحركة، غرير النظرة، أكرش، ساذجًا، كل ما فيه ينبئ أنه قروى مستوحش فى المدينة.

وليس أدل على ذلك من (القبقاب) الذى حمله فى أمتعته، فقد سمع من الشيخ رجب أن الوضوء فى أوربا متعذّر لاعتياد الناس لبس الأحذية فى البيوت، ولم تخل الأمتعة من السراويل الطويلة ذات التكة المحلاوى، وسلة ملأى بالكعك و(المنين) من عمل أمه وفاطمة النبوية. وما إن تصل الباخرة إلى غايتها حتى تبدأ رحلة التحوّل المقترنة بالعبور من الضفة الجنوبية للبحر، حيث الشرق، إلى الضفة الشمالية، حيث الغرب. ويتراكم التحوّل عبر سبع سنوات.

وتعود الباخرة من الغرب إلى الشرق، لكن بعد أن تغير إسماعيل تغيرًا جذريًا. فيهبط من سلم الباخرة قفزًا، مرفوع الرأس، متألق الوجه، سمهرى القامة، سريع الخطو، واثق النظرة كل ما فيه ينبئ بالتفوّق العلمى الذى حققه، والتغير الحضارى الذى اكتسبه، والتبدّل العميق الذى أصاب شخصيته، كان عفًا فغوى، راقص الفتيات. لكن هذا الهبوط يكافئه صعود لا يقل عنه جدة وطرافة، فقد تعلّم كيف يتذوّق جمال الطبيعة، ويتمتع بغروب الشمس ويتفوّق فى علوم الطب، وبخاصة طب العين.

وكانت (مارى) التى تكثّفت فيها صفات الغرب دليله ومرشده، علّمته أن يكون مشجبه هو ذاته، وأن يتمرّد دائمًا على القيود، وأن ينبذ العواطف الشرقية المرذولة لأنها غير علمية وغير منتجة.

ويصل إلى داره فيروّعه الفقر الذى بدت عليه، لم يكن يعلم أن أباه انتكست موارده المالية فى سفره، لكنه ظل حريصًا على أن يكمل ابنه

تعليمه، وظل إسماعيل يلهو فى اسكتلندة مع رفيقته، يأكل البفتيك، وأبوه قعيد الدار، عشاؤه طعمية أو فجل. وتأتى فاطمة، كى تقطر لها أمها من زيت قنديل أم هاشم فى عينيها، فقد تعوّدوا على بركة الزيت، ونشأ هو شخصيًا على هذه البركة. ولكن وقد حدث له ما حدث من تحوّل، فإنه يقفز من مكانه كالملسوع، ويوقف يد أمه، ويحل الرباط حول عينى فاطمة، فوجد رمدًا أتلف الجفنين وأضرّ بالمقلة، لو وجد العلاج المهدئ المسكّن لتماثلت للشفاء، ولكنها تسوء بالزيت الحار الكاوى، فيصرخ فى أمه، ويقذف بزجاجة الزيت وبركة أم هاشم على السواء.

وتدهش الأسرة التى ظلت طوال عمرها (تكالها على الله وعلى أم هاشم). وتصدم صدمة لا تقل عن صدمته. ويسأل الأب غاضبًا: أهذا ما تعلمه ابنه فى بلاد بره؟ الكفر؟! أما هو فيمضى فى ثورته، وقد انتابه غضب مجنون عارم. ويخرج إلى الميدان فلا يرى فى المصريين المحتشدين فيه سوى جنس سمج ثرثار أقرع أمرد. عار حاف، بوله دم، وبرازه ديدان. يتلقى الصفعة على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه، ومصر؟ قطعة (مبرطشة) من الطين. جمود يقتل كل تقدم، وعدم لا معنى فيه للزمن. وينفلت من الزحام، هائجًا، متوجها إلى الجامع، ويدخله، فيجد المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة من عطور البرابرة. والقنديل يرسل شعاعه إعلانًا قائمًا للخرافة والجهل.

وحول المقام أناس كالخشب المسندة، وقفوا مشلولين متشبّثين بالأسوار. ويفقد وعيه، ويصيبه حال من الجنون العارم، فيهوى بعصاه على القنديل، فيتحطّم، ويتناثر زجاجه، وتهجّم عليه الجموع، وتضربه

الجماهير، ويدوسونه بالأقدام، ويسيل الدم من رأسه على وجهه، وتتمزق ثيابه، ولا ينقذه من الموت، سوى الشيخ دروديرى الذى يستخلصه من غضب الناس، ويحمله إلى الدار، ويضعونه على الفراش وتجتمع الأسرة حوله تبكى صوابه المفقود.

صراع مع المرض

وعندما يفيق إسماعيل من مرضه العصبى، وتبرأ جراحه، يخرج إلى الأصدقاء والزملاء، ويستعين بأحدث الآلات، ويأخذ فى علاج فاطمة التى عالج فى أوربا أكثر من مائة حالة مثلها، فلم يخنه التوفيق فى واحدة. فلماذا لا ينجح مع فاطمة أيضًا، وسلمت الفتاة إليه نفسها، لا يهمها مرضها بقدر ما يهمها أن تكون بين يديه موضع عنايته. ولكنها لا تشفى، بل تستيقظ ذات صباح وهى تفتح عينيها ولا ترى، فقد انطفأ آخر بصيص تتعزّى عليه، ويجن إسماعيل، ويهرب إلى الميدان، ويظل هاربًا، إلى أن يأتى رمضان، وتحل ليلة القدر.

ويرى إسماعيل النور الذى غاب عنه دهرًا، فيفتح له روحه وقلبه، مدركًا أن لا علم بلا إيمان، وأنه فشل لأن فاطمة لم تؤمن به، وإنما كان إيمانها ببركة السيدة زينب وحدها وكرمها.

ويدخل إسماعيل المقام، ممارسًا شعيرة مضادة لشعيرة دخوله التدميرى السابقة، فقد أضاء النور قلبه، كما أضاء النور قلب نعيمة العاصية التى تاب الله عليها بعد عصيان سبع سنوات، سبع سنوات موازية للسنوات التى قضاها إسماعيل فى الخارج، والتى بدت – فى المقام – كأنها سبع سنوات من العصيان الموازى. ويرأف به الشيخ

درديرى، ويستجيب إلى طلبه فى أن يمنحه شيئًا من زيت القنديل، خصوصًا أن الليلة ليلة القدر وليلة الحضرة. ويخرج إسماعيل من المقام، مشحونًا بالنور الذى انطوى عليه، والذى أحال ظلمة روحه إلى ضوء، فيرى كل شيء مختلفًا. ويعود إليه وعي ابن الحى الذى لابدّ أن يقف إلى جوار أهله، محتفيًا بهم كما هم،وبادئًا من واقعهم، غير منكر لما ظلوا يعيشون عليه من معتقدات، أخذ هو يستعيد معنى الإيمان بها.

ويبدأ فى علاج فاطمة من جديد، مستمسكًا من علمه الجديد بروحه وأساسه، معتمدًا على الله، فبارك الله فى علمه ويديه. واستجابت فاطمة التى جاء لها بزيت القنديل، بركة أم هاشم، وينجح العلاج الذى يجمع ما بين العلم والإيمان، وتتحوّل فاطمة نفسها على يديه، بعد أن أخذ يعلّمها كيف تأكل وتشرب، وتجلس وتلبس. ويقوده شفاء فاطمة إلى شفاء غيرها، فاتحًا عيادة للفقراء من الفلاحين الذين أراد أن يعود إليهم معينًا، منتميًا، كأنه القطرة التى تعود إلى أصلها فى البحر، ويتزوج بفاطمة، وينجب منها البنين والبنات، ويعيش معها ومرضاه فى (تبات ونبات).

نهاية صادمة

هكذا، تنتهى حكاية الدكتور إسماعيل فى (قنديل أم هاشم). نهاية لا تخلو من الصدمة، أو من إحباط التوقّع، خصوصًا لقارئ قرأ قبل ذلك (عصفور من الشرق) وهام مع رسائل محسن إلى أندريه التى جمعها توفيق الحكيم فى (زهرة العمر). ويبدو الأمر – من هذا المنظور – كما لو كان يحيى حقى يخلق شخصية هى على النقيض فى التكوين وفى

المسار. وبالفعل، فإن إسماعيل نقيض محسن فى النشأة. الأول ابن المدينة الذى ارتحل عنها إلى باريس فوجد فيها النور الذى ظل يحلم بأن ينقل بعضًا منه إلى موطنه المظلم الذى عاش فيه حالمًا بباريس (المحبوبة). وظلت رسائله إلى أندريه تطلب المدد الروحى من النور فى صحراء وطنه، كما ظل على يقينه أن (النور يأتينى من الشاطئ الآخر... المائج بأضواء الحياة الفكرية). ومحسن رومانتيكى حتى النخاع، نراه فى المشهد الأول من (عصفور من الشرق) يمضى حالمًا تحت المطر، ممسوسًا بالفنون التى غذت روحه، لا يعرف سوى الوصل الروحى بالمحبوبة التى يفنى فيها.

وحتى عندما يتمرّد محسن على الجانب الظالم من علاقات رأس المال فى باريس، نتيجة صداقته بالعامل أندريه والمهاجر الروسى، فإنه يظل مؤمنًا بأن نور الحضارة الباريسية يغلب ظلمتها. وإشعاعه لابد أن يبسط نفسه على وطنه المتخلف، ففى ذلك السبيل الوحيد إلى التقدم، واكتساب (مباهج الآداب العصرية) التى أشار إليها الشيخ رفاعة الطهطاوى.

وإسماعيل نقيض محسن من هذا المنظور، فهو لا يخلو من ملامح واقعية، تباعد بينه والنموذج الرومانتيكى الذى يتجسّد فيه محسن. ولذلك نراه أول ما نراه فى طريقه إلى ميدان السيدة زينب، ساعيًا بين (ما شا الله) بائعة الطعمية والبصارة والأسطى حسن الحلاق، والشحاذين الذين يحيطون بأبواب المقام، وهدير أصوات الباعة، والشابة التى تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية، صوتها الصارخ يجذب الوجوه للنوافذ، وبائع الدقّة الأعمى الذى لا يبيع شيئًا إلا إذا أقرأه الشارى

السلام. فيقرئه وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء. وإسماعيل يتحرك وسط هذا المشهد المزحوم بتفاصيل تبدو معادية تمامًا، أو نقيضًا حادًا للرومانتيكية، وينسرب فى هذه التفاصيل عطر يشى بحضور مقام السيدة التى نشأ الجميع فى حراستها – بعد الله.

ويتحول فشل التحدى الأول لإسماعيل إلى كارثة تهزّه من الأعماق، وتضع كل ما تعلمه من الغرب موضع المساءلة، المساءلة التى تمتد عبر معاناة روحية تنتهى باكتشاف النور الذى كان موجودًا منذ البداية، فى الداخل لا الخارج، والذى كان التخلى الكامل عنه تحويلا للعلم المكتسب إلى طائر بجناح واحد. وينتهى الصراع لا برفض الواقع الفعلى كما فعل محسن توفيق الحكيم، وإنما باكتشاف العنصر الروحى الخلاق فى هذا الواقع الذى يرمز إليه الحضور المضىء للقنديل، الحضور الذى يمتد إلى الزيت الذى يؤمن ببركاته مَن يقبلون عليه.

ويعود إسماعيل إلى توازنه عندما يستعيد نوره الداخلى، فيلجأ إلى النور الخارجى للقنديل بوصفه معادلا للقيم الروحية الدينية العميقة التى تغمره، والتى توازى ما يغمر الميدان كله من شهيق وزفير عميقين يجوبان المكان والزمان كغمرة الضوء التى تتأرجح فوق القبة، كأنها شارة العلم الذى أصبح قرين الإيمان الروحى.

* * *